دور العقيدة في فلسفة النهوض الحضاري لدى مالك بن نبي

The role of faith in the philosophy of civilizational advancement according to Malek Bennabi

م. د. معاذ حمدي حسون

أ. م. د. أحمد هاشم سالم

الجامعة العراقية - كلية العلوم الإسلامية - الجامعة العراقية

كلية العلوم الإسلامية

Lect. Dr. Maadh Hamdi Hassoon

A.M.D. Ahmed Hashem Salem

Iraqi University - College of Islamic Sciences

الملخص

يُعد عنوان البحث هذا وفكرة الحضارة الإسلامية والنهوض الحضاري وشخصية مالك بن نبي، من موضوعات الفكر الإسلامي المعاصر المهمة، ولما يحتويه من فكر وفلسفة مالك بن نبي في الحضارة، وصناعة الحضارة والنهوض الحضاري، وذلك عن طريق معادلة الحضارة عنده وهي الإنسان والتراب والوقت، وبيانه لدور الفكرة الدينية أو العقيدة وكيف أنها تُعد العنصر الفعال أو كما يسميها (مركب الحضارة) والتي يتم مزجها مع عناصر الحضارة الثلاثة هذه، وبالتالي يتحقق النهوض الحضاري.

الكلمات المفتاحية : (الفكر الإسلامي ، عناصر الحضارة، العقيدة، مالك بن نبي).

Abstract:

The Title of this research, the idea of Islamic civilization, cultural advancement, and the personality of Malek Bennabi, are among the important topics of contemporary Islamic thought, and because of the thought and philosophy of Malek Bennabi about civilization, the making of civilization, and cultural advancement, through his equation of civilization, which is man, soil, and time, and his statement of the role The religious idea or belief and how it is considered the effective element or as he calls it (the complex of civilization), which is mixed with these three elements of civilization, and thus civilizational advancement is achieved.

المقدمة

عند الكلام عن الحضارة والنهضة في وقتنا المعاصر يلمع في ذهننا أسماء مفكرين برزوا كثيرا في هذا المجال وأجادوا فيه، ومن أهم هذه الأسماء المفكر الجزائري مالك بن نبي (رحمه الله) الذي أسهم بفكره وكتاباته برفد المكتبة الفكرية الإسلامية في مسائل تخص التجديد الفكري والنهضة والحضارة، وكان لتنشئته الاولى -كما سيمر علينا ذلك في ثنايا هذا البحث- وبداية تحصيله العلمي والثقافي المتنوع والمتركب من الأساس الإسلامي المتين من جهة، والثقافة الفرنسية الغربية من جهة اخرى، الدور الكبير في صناعة شخصية علمية فكرية استثنائية، من قوة هذه الشخصية والقامة العلمية انه على فراش الموت قال لزوجته سأعود بعد خمسة وعشرين عامًا قاصدًا ظهور فكره والاهتمام به.

وتقوم فكرة النهوض الحضاري عند مالك بن نبي على عناصر أربعة، أو ممكن نسميها رباعية مالك بن نبي في النهوض الحضاري، العنصر الأول والمهم هو الإنسان، وفصل فيه بن نبي كثيرًا، والثاني التراب ، والثالث الوقت ، ولكن ربما يمكن القول بأن عبقرية فكرة مالك بن نبي في صناعة الحضارة تكمن في اهتمامه وتركيزه على العنصر الرابع الا وهو الفكرة الدينية (العقيدة) وكيف انها الأساس في صناعة الحضارة وصياغتها، وبما أننا بوصفنا مسلمين فقد بين قوة الحضارة الإسلامية إذا ما طبقت العقيدة الإسلامية وانطلقت منها.

وقد تكون هذا البحث من ثلاثة مباحث، إذ جاء المبحث الأول بعنوان (التعريف بالمفردات الواردة في البحث) واشتمل على مطلبين: الأول معنى العقيدة الإسلامية، والثاني معنى الحضارة، وأما المبحث الثاني فكان عنوانه (مالك بن نبي وفكرة الحضارة عنده) وأيضًا اتى بمطلبين: الأول التعريف بمالك بن نبي، والثاني عناصر النهضة والحضارة عند مالك بن نبي، والمبحث الثالث كان بعنوان (ضرورة العقيدة عند مالك بن نبي في النهوض الحضاري) وكان هناك مطلبين أيضًا: الأول أهمية العقيدة في الحضارة، والثاني كان عنوانه العنصر الرابع في صناعة الحضارة عند مالك بن نبي.

المبحث الاول - التعريف بالمفردات الواردة في البحث

المطلب الاول - معنى العقيدة الإسلامية

العقيدة من ناحية اللغة تأتي من العقد وهو نقيض الحل، وتأتي تقريبًا في جميع استعمالاتها

بمعنى الربط، الإلزام، التوثق، الربط بشدة، الإحكام، العهد [١]، وغيرها من المعاني اللغوية لهذا المصطلح، إذ يقال عقدت الحبل أي شددته وربطته بحزم، قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ)** (المائدة:١)، ومعنى ذلك أي أوفوا بالعهود. وقال تعالى: **(لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ)** (المائدة:٨٩)، أي بما عزمتم وألزمتم أنفسكم، ونفهم من ذلك أن المعنى اللغوي يشير إلى أن العقيدة هي (العهد) الذي يجب أن يبقى عليه الإنسان، فيلزمه ولا يتخلى عنه.

وأما العقيدة اصطلاحًا: فمعناها الحكم الجازم الذي لا يتطرق إليه الشك والريب لدى معتقده [٢]، وهذا الحكم ربما يكون حقًا، أو باطلًا. فكما هو معلوم أن كل أمة من الأمم لها عقيدة تؤمن بها وتسير عليها. وأما العقيدة الإسلامية كمصطلح مركب فالناظر في كلام العلماء يجد أنهم قد عرفوا هذا المصطلح بـ: «الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وسائر ما ثَبتَ من أمور الغيب، وأصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم والطاعة، والإتباع لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم» [٣].

وتسمى العقيدة أيضًا بأسماء متعددة مثل : التوحيد، الإيمان، الفقه الأكبر، الشريعة. والباحث في تعريفات العلماء للعقيدة الإسلامية يجد أنهم قد حصروا مفردات العقيدة الإسلامية وموضوعاتها في مفردات عقدية معينة تتناول :

١. المسائل العقدية التي تتعلق بالإلهيات مثل : الوحدانية ، أقسام التوحيد ، دلائل وجود الله.

٢. المسائل العقدية التي تتعلق بالنبوات مثل : دلائل صدق الرسول ، إثبات النبوات ، المعجزات.

---

(١) محمد بن أحمد الأزهري الهروي: تهذيب اللغة: تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج١، ص١٣٤. وأيضًا: ابن منظور (محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين) ، لسان العرب، دار صادر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٤ هـ.

(٢) سعدي أبو حبيب: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، دار الفكر، سورية ، ط٢، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٥٦، وانظر أيضًا: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، ج٢، ص٤٢١.

(٣) عبد الله بن عبد الحميد الأثري: الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة) ، تقديم : صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ، نشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ، ج ١ ، ص ٤٩.

٣. المسائل العقدية التي تتعلق بالسمعيات مثل : البعث ، الجزاء، اليوم الآخر. وحقيقة الأمر أن هناك مفردات في غاية الأهمية يجب أن تدخل في مفردات العقيدة ولها علاقة وثيقة في بناء الحضارات منها: مفهوم الاستخلاف، وموضوع تسخير الله - جل شأنه - الكون للإنسان، وموضوع العدالة الاجتماعية وعلاقته في بناء المجتمعات. فهذه المفردات من النادر أن نجد لها أثرًا في مفردات العقيدة الإسلامية عند طرح العلماء لهذا الموضوع، مع أن هذه المفردات يجب أن تدرج ضمن موضوعات العقيدة لأهميتها في بناء الحضارة (١).

أهمية العقيدة الإسلامية في البناء الحضاري الإسلامي:

تُعد العقيدة -أي عقيدة بصورة عامة- من الركائز الأساسية في بناء الحضارات، حيث تؤثر بشكل كبير على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية. وتلعب العقيدة دورًا جوهريًا في تشكيل القيم والمبادئ التي توجه سلوك الأفراد والمجتمعات.

وإذا ما أتينا إلى العقيدة الإسلامية فإننا سوف نرى كيف أن لها دورًا جوهريًا ومحوريًا في بناء الحضارة، فهي ليست مجرد مجموعة من المعتقدات والطقوس، بل هي منظومة شاملة للحياة تشمل جميع جوانبها، وتقدم للإنسان تصوراً واضحاً عن الكون والحياة والإنسان، وتُرسّي قواعد متينة لبناء مجتمع فاضل وحضارة راقية.

وعند الكلام عن العقيدة الإسلامية فيمكن القول أن ليس هناك في تاريخ البشرية خطوة عملت على تحرير العقل، وتكريمه، ووضعه في موضعه الصحيح كهذه الخطوة، إذ عملت على تحويل التوجه الانساني من التعدد الى الوحدة، ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان الى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون.. وكسر للحاجز المادي باتجاه الغيب، وتمكين للعقل من التحقق (بقناعات) تعلو على معطيات الحس القريب (٢).

إذ نلاحظ كيف أن القرآن الكريم تحدث عن هذه النقلة، فقال إنها خروج بالناس (من الظلمات الى النور)، أي هو التحول الكامل من الأسود الى الأبيض، والانتقال من النقيض الى النقيض الآخر.. وقال أيضًا بأن الإسلام جاء لتحرير بني آدم (ويضع عنهم إصرهم والأغلال

(١) رائد سعيد أحمد بني عبد الرحمن: دور العقيدة في بناء الحضارة، أركان الإيمان نموذجا، بحث منشور في مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية، العدد(١)، المجلد(٤)، كانون الثاني، يناير، ٢٠١٨، ص١٣٧.

(٢) انظر: عماد الدين خليل: مؤشرات حول الحضارة الإسلامية، دار الصحوة للنشر والتوزيع، مصر، ب، ت، ص٧ - ٨ .

التي كانت عليهم)، وبين في أكثر من سياق بأن الدين الجديد هذا هو (الصراط المستقيم)، وما غيره فليس سوى التيه والتخبط، والاعوجاج، والضياع، والهوى والضلال.. ولا يمكن لأي عقل مهما أوتي من فطنة وقدرة ومعرفة على أن يعمل ويبدع ويعطي ويقدم، وهو يتخبط بالتيه ويكبل بالأغلال.

إن العقيدة الجديدة (الإسلامية) جاءت لكي تنقل الإنسان من الضيق الدنيوي والانحراف الى السعة والعدل والتوحيد، هنالك حيث يجد العقل نفسه، وقد أعيد تشكيله بهذه القيم، فتراه قادرًا على الحركة والفعل والابداع عبر هذا المدى الواسع الذي منحه إياه الإسلام، وبنفس الوقت هو غير محكوم عليه بظلم من سلطة فكرية قاهرة ترغمه على قبول ما لا يمكن قبوله بإسم الدين.

وإذا أردنا أن ندرك ونعرف ما الذي فعلته هذه العقيدة الجديدة من نقلة تصورية عقدية فإن لنا أن نستحضر في ذهننا ممارسات العقل العربي في وقت الجاهلية حينذاك، وطرق إدراكه للواقع والعالم، وصيغ تعامله مع ما يتصوره حينذاك مع القوى التي يؤمن بها والتي تهيمن عليه وتسيره، ونقارن كل ذلك بالمستوى الذي أحتله العقل المسلم وما حققه بعد أن تم إعادة تشكيله بالاعتقاد الجديد.

لقد بنيت العقيدة الإسلامية على حشد من القيم التصورية كالشمولية والربانية والثبات والتوازن والتوحيد، والإيجابية والواقعية. فنراها كيف تلتئم وتتداخل وتتكامل وتتناسق لكي تُكون وتُشكل نسقًا عقيديًا ما بلغت عشر معشاره أية عقيدة أخرى في العالم، وضعية كانت أم دينية، ولن تبلغه أبدًا. وكما أن هذا النسق المحكم يمثل تطابقًا باهرًا مع معطيات الفطرة البشرية في أصولها النقية الحرة، فإنه يمثل في الوقت نفسه ذات التطابق مع معطيات العقل المحضة وتطلعاته وآفاقه[1].

يمكن القول إن التصور الإسلامي نسيج وحده وإن المغزل الإلهي الذي حاكه بإعجاز يصعب تنفيذه على الإنسان، فهو الذي عرف كيف يعيد تشكيل العقل المسلم الجديد، ويدفعه أيضًا في الوقت نفسه إلى الحركة التي لا سكون بعدها. أي منحه الأرضية وبنفس الوقت أعطاه الإشارة، وسنجده بعدها ينطلق لكي يصنع المعجزات، ويقدم أفضل ما يمكن تقديمه في البناء الحضاري والعمراني.

وبالتالي فإننا من خلال ذلك العرض نلاحظ مدى أهمية العقيدة الإسلامية في النهوض الحضاري، ولكن علينا أن نفهم لماذا وكيف مهمة هي العقيدة الإسلامية في صناعة الحضارة

(١) المصدر السابق ، ص٨.

الإسلامية، علينا أن نفهم أن طالما قلنا حضارة إسلامية فعلينا الرجوع إلى أساس الإسلام، وكما هو معلوم أن الأساس في ديننا الحنيف هي (العقيدة الصحيحة) وهي المحرك والدافع الأول لكل عمل أو نشاط، وإذا ما بنيت (هذه العقيدة) بصورة صحيحة فإن ما بعدها سوف يتخذ شكلها إذا كانت قوية وسليمة، أو ضعيفة وغير سليمة.

بناء العقيدة الإسلامية والاهتمام بها يكون على درجات متعددة، أولها الفهم، وذلك بتصور هذه العقيدة على حقيقتها كما ورد بها الوحي. وثانيها التصديق بحقيقتها، سواء في نسبتها إلى مصدرها، أو في قيمتها الذاتية مطابقة للواقع، وتأديتها إلى الخير والصلاح. وثالثها صيرورتها مرجعًا موجهًا للفكر في كل ما يتجه إليه البحث، وما ينتهي إليه من النتائج. ورابعها صيرورتها دافعة للإرادة كي تنطلق في سبيل الفعل والإنجاز. وربما نلاحظ في كل درجة من هذه الدرجات في واقعنا المعاصر اليوم يوجد خلل يستوجب الإصلاح، لذلك علينا البدء بخطوات الاصلاح حتى ولو كانت بسيطة، ربما نصل في يوم من الايام بمشيئة الله وتقديره الى ما كان عليه الجيل الإسلامي الأول عند إنشاء التحضر الإسلامي في دورته الأولى [١].

المطلب الثاني- معنى الحضارة

إن مصطلح الحضارة من المصطلحات الأكثر شيوعًا واستخدامًا، ومع ذلك نرى أن هناك تعريفات متعددة للحضارة، حيث لم يتفق العلماء على تعريف محدد لها، ومع ذلك فإن هذا المصطلح له تدرج تاريخي . **فالحضارة لغةً** عندما تطلق فإن إطلاقها ضد البداوة [٢].

وأما **لفظ الحضارة في المعنى الاصطلاحي** المعاصر فهي أكثر شمولًا واتساعًا من المعنى اللغوي، وعلى هذا نفهم أن الحضارة لا تقتصر على المدنية فقط، وربما نختصر التعريفات بتعريف جامع وشامل يوضح لنا معنى الحضارة اصطلاحًا، إذ تُعَرَف الحضارة بأنها «الحصيلة الشاملة للمدنية، والثقافية، والفكر، ومجموع الحياة، في أنماطها المادية والمعنوية» [٣]، فلفظ

(١) انظر: د.عبد المجيد النجار: دور الاصلاح العقدي في النهضة الإسلامية، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، مجلد١، عدد١، ١٩٩٥م، ص٢.

(٢) ابن فارس (أحمد بن زكريا القزويني الرازي): معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، ١٩٧٩ م ، ج ٢ ، ص ٧٦.

(٣) أحمد عبد الرحيم السايح: الحضارة الإسلامية ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، السنة العاشرة - العدد الثالث- ذو الحجة ١٣٩٧ هـ - نوفمبر تشرين الثاني ١٩٧٧ م، ص٧٠ .

الحضارة يشمل نتاج أي أمة من الأمم سواء كان هذا الرقي ماديًا أو معنويًا. وكل أمة من الأمم لها حضارتها التي تعتز وتفتخر بها، والحضارة الإسلامية كمصطلح مركب تشمل نتاج الأمة الإسلامية في جميع جوانب الحياة على الصعيد العلمي، والأدبي، والاقتصادي، والعمراني، لكن هذه الحضارة استمدت مقوماتها من الإسلام ذاته. ولعل مصطلح الحضارة له ما يقابله في كتاب الله تعالى وهو مصطلح الاستخلاف الذي أمر الله تعالى به الإنسان والقائم على عمارة الكون.

المبحث الثاني
مالك بن نبي وفكرة الحضارة عنده

المطلب الأول: مالك بن نبي[١]

هو مالك بن عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي.

وُلِدَ في مدينة (تبسة) التابعة لولاية قسنطينة شرقي الجزائر في (ذي القعدة ١٣٢٢هـ = يناير ١٩٠٥م) زمن الاحتلال الفرنسي لها، وتأثر بأمه التي عملت بالحياكة، وباعت بعض أثاث البيت لتعلم أولادها. كانت (تبسة) التي قضى فيها معظم طفولته أقرب إلى البداوة وذات حضور فرنسي ضعيف؛ فاستمرَّ في تلقي الدروس في المساجد مع التحاقه بمدرسة فرنسية، وقد تأثَّر بصديقٍ له دائم الاستشهاد بآيات القرآن وتفسيرها تفسيرًا اجتماعيًّا، كما تأثر بأبناء مدينته المعتصمين بالإسلام والعربية حتى لا تذوب هويتهم في هوية المستعمر. انتقل مالك بعد حصوله على الابتدائية إلى (قسنطينة) ليكمل تعليمه، وهناك تأثر بمعلمه الفرنسي «مارتان» في تذوقه للقراءة، كما تأثر بمجلة «الشهاب» التي تصدرها جمعية العلماء المسلمين، برئاسة عبد الحميد بن باديس.

وقيل إنّ بن نبي قد طالع في هذه الفترة كتابين مهمين كان لهما أكبر الأثر في حياته الفكرية بعد ذلك، وهما «الإفلاس المعنوي: هل هو للسياسة الغربية في الشرق؟» للشاعر الإسلامي أحمد محرم، و»رسالة التوحيد» للإمام محمد عبده، وقد اكتشف من خلالهما كثيرًا من أوضاع العالم الإسلامي، وفي هذه الفترة أيضًا يرجع اهتمامه بكتابات عبد الرحمن الكواكبي وخاصة كتابه «أم القرى»، وكذلك بكتابات عبد الحميد بن باديس.

إذً نلاحظ أن فكر مالك بن نبي كان ثنائي الثقافة (الإسلامية والغربية)، وكان لها أثرها في تكوينه الفكري، وانعكاساتها الواضحة في كتاباته التي تميزت بالمزاوجة بين المصدرين: بين الانتماء لحضارة الإسلام والرغبة في التطور، ومحاولة الاستنهاض بواقع الأمة الحضاري، كما

---

(١) انظر: أ.د. راغب السرجاني : مالك بن نبي .. فيلسوف الحضارة والنهضة، بحث منشور في موقع قصة إسلام، ٢٠١٤م (https://islamstory.com/) تاريخ الزيارة ١٩-٤-٢٠٢٤م.

وأيضًا انظر: أ.د.مصطفى النشار: مالك بن نبي من نقد الذات و الآخر إلى بناء نظرية جديدة في البناء الحضاري مجلة العقيدة، العدد : ١٥، شهر جمادى الثانية ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م، ص٢٠٨، ٢٠٩. وأيضًا : موقع مالك بن نبي: ((www.binnabi.net تاريخ الزيارة ١٩-٤-٢٠٢٤م.

سنلاحظ ذلك من خلال فكرة الحضارة عنده.

المطلب الثاني : عناصر النهضة والحضارة عند مالك بن نبي

قبل عرض عناصر النهضة والحضارة عند مالك بن نبي علينا أن ننوه أن من الملاحظ من خلال كتابات ونتاجات بن نبي الفكرية، إن قضية القضايا عنده وأهمها هي نهضة المسلمين الحضارية، ومحاولته البحث عن كيفية حصول هذه النهضة، وقبل ذلك معرفة معوقاتها منذ غروب شمسها وزوالها، لكن من الملاحظ أن معالجة بن نبي لهذه القضية أتخذ منهجًا فكريًا يمكن أن نسميه أصيلًا كل الأصالة، لماذا؟ لأنه حاول أن يربطها ويصل إليها عبر نظرية في البناء الحضاري، هي من الأصالة والعمق بحيث ينبغي أن نتوقف عندها أولًا، ولعل السؤال الجوهري المبدئي فيها هو: ما هي الحضارة؟ مرَّ علينا ذكر معنى الحضارة انفًا، لكن لنعرف وجهة نظر مالك بن نبي وتعريفه للحضارة.

إذ نرى أن تعريف الحضارة عند نبي ينبثق من رؤية ثابتة مؤداها هو أن الحضارة فكرة أو هي نتاج فكرة، لكن هذه الفكرة ليست بعيدة عن المجال الحيوي الذي تنشأ فيه، فقد عرف بن نبي الحضارة في كتابه «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي» قائلًا: «إن حضارةً ما هي نتاجُ فكرة جوهرية تَطْبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ» (١)، كما عرفها أيضًا في كتابه المهم «شروط النهضة» مبينًا إياها : «إن الحضارة مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي (البيولوجي) حيث ينشأ ويتقوى هيكلها وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها» (٢)، ومن هاتين النظرتين والتعريفين يعيد بن نبي تعريف الحضارة بصورة ربما أكثر شمولًا فيقول عنها: «إنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره» (٣).

يرى مالك بن نبي أنه لكي يكون هناك نهضة أو حضارة في اي مجتمع، فلابد من تحليل عوامل قيامها، وقد أجمل عوامل قيام أية حضارة ونهوضها في عناصر أربعة مهمة هي: الإنسان

(١) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د. بسام بركة، ود. أحمد شعبو، دار الفكر المعاصر بلبنان ودار الفكر بسوريا، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٤١.

(٢) مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ١٩٨٦م، ص٤٣.

(٣) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص٤٢.

والتراب والوقت، والعقيدة، أو الفكرة الدينية، وهو يصوغها في معادلة شبيهة بالمعادلات الرياضية إذ يقول : حضارة = إنسان + تراب + وقت، إضافة لتلك العناصر الثلاثة العامل المهم والمؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض وهو الفكرة الدينية (العقيدة)، والتي كما يبين بن نبي ان الفكرة الدينية هي أساس تركيب كل نهضة أو حضارة سواء تريد القيام، أو قد مرت على مدار التاريخ.

١- الإنسان:

الحضارة عند مالك بن نبي تبدأ من الإنسان كما بين ذلك من خلال معادلته، وأنه هو الأساس فيها، وبناء الحضارة يتم على يديه وينتهي على يديه أيضًا، فهو أهم عنصر في البناء الحضاري، فيبين بن نبي انه لكي توجد الحضارة لا بد من وجود الإنسان القادر على استخدام العنصرين (التراب والوقت) للوصول إلى الهدف، وهو بناء الحضارة والتفوق الحضاري، «ولكي يؤثر الإنسان في تركيب التاريخ وصنع الحضارة فإنه يؤثر في مجتمعه ككل بثلاث مؤثرات: أولًا: بفكره وثقافته وثانيًا: بالعمل وثالثًا: برأس المال» (١)، وقد فَصَّل بن نبي في كل مؤثر من هذه المؤثرات الثلاثة، ولكن لا يسع المقام هنا لعرضها، ولكن يمكن العودة إلى كتبه وفهم مزيدًا من التفصيل لمن أراد ذلك. ولكن ربما يكفينا أن نختصر ما قاله عن الإنسان: «يجب أن نصنع رجالًا يمشون في التاريخ، مستخدمين التاريخ والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى» (٢)، فالإنسان هو أهم وأول عنصر في صناعة الحضارة، والذي بتحوله وتغيره يستطيع أن يفيد من العنصرين الآخرين التراب (الموارد) ومن الوقت.

٢- التراب:

أما العنصر الثاني في معادلة الحضارة عند نبي هو (التراب)، إذ إن التراب عنده يعني الأرض المليئة بالثروات والمعادن والخيرات، التي يتوقف البناء الحضاري على قدرة الإنسان (صانع الحضارة الجديدة) على استخدامها والاستفادة منها وحسن توظيفها، ومشكلة هذا العنصر عند بن نبي هي كيف يحول الناس (في أي حضارة) الرمال أو التراب إلى عامل بناء حضاري عن طريق تحويلها إلى أرض خصبة والانتصار على الرمال بتحويلها إلى بيئة خضراء زراعية، أو بالاستفادة من الموارد الطبيعية الكامنة تحتها. إذً يبين بن نبي أن رسالة الإنسان الحضارية هي الانتصار على

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٧٧.

(٢) المصدر نفسه ، ص٧٥.

نوائب الطبيعة وأهوالها وتحويلها لمصادر وثروات للاستفادة منها عن طريق علمه وعمله وذلك عبر الجهود الفردية والجماعية للأمة، وإذا ما استطعنا فعل ذلك فإننا نستطيع أن نمهد لصنع حضارة جديدة كما يبين بن نبي.

٣- الوقت:

أما العنصر الثالث فهو (الوقت) وهو عنصر في غاية الأهمية في معادلة البناء الحضاري عند نبي، وأنه يجب أن يكون هناك أمثل استغلال للوقت، من أجل العمل ومواجهة التحديات الحضارية إذ يقول بن نبي: « انه في ساعات الخطر في التاريخ، تمتزج قيمة الزمن بغريزة المحافظة على البقاء، إذا استيقظت، ففي هذه الساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب، لا يقوّم الوقت بالمال، كما ينتفي عنه معنى العدم» (١)، نلاحظ من هذا النص قيمة الزمن عند بن نبي وأهيمته وكيف أنه يصبح في بعض الأحيان جوهر الحياة الذي لا يقدر بثمن، ويضيف قائلًا: «وحينما يكون الوقت من أجل الإثراء أو تحصيل النعم الفانية، أي حينما يكون لازمًا للمحافظة على البقاء أو لتحقيق الخلود والانتصار على الأخطار يسمع الناس فجأة صوت الساعات الهاربة ويدركون قيمتها التي لا تعوض؛ ففي هذه الساعات لا تهم الناس الثروة أو السعادة أو الألم. وإنما الساعات نفسها، فيتحدثون حينئذ عن ساعات العمل، إنها العملة الوحيدة المطلقة التي لا تبطل ولا تسترد إذا ضاعت، إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع وأن يجدها المرء بعد ضياعها ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ولا ان تستعيدها اذا مضت» (٢).

إذً هكذا بين مالك بن نبي أهمية الوقت والزمن لمن يريدون صناعة الحضارة، وأن الإنسان كلما كان بإستطاعته استغلال الوقت في العمل الجاد، وعلى اكتشاف التوقيت المناسب لبدء العمل وانهائه باتزان وإتقان، كلما كان انتاجه وإنجازه الحضاري ذو قيمة كبيرة وملفتًا للانتباه.

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص١٣٩.

(٢) المصدر نفسه : ص١٤٠.

المبحث الثالث
ضرورة العقيدة عند مالك بن نبي في النهوض الحضاري

المطلب الأول - أهمية العقيدة في الحضارة

يقول الاستاذ الدكتور عماد الدين خليل: «إن الحضارة أية حضارة تتضمن (المدنية) التي تعني بالجوانب المادية، و(الثقافة) التي تعني بالجوانب الفكرية والاخلاقية والفنية، إلى آخره.. وأن مكان العقائد والأديان إنما هو مساحة ما من هذه الدائرة الاخيرة. ويبين إن الدين أو العقيدة في المنظور الاسلامي إنما هي أوسع بكثير من أن تقتصر على جانب ما من دائرة الثقافة، بل هي أوسع حتى من دائرة الحضارة على امتدادها» (١).

ويبين إنها رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان.. هي برنامج عمل، ومنهاج حركة، يهيمن على كافة المعطيات الحضارية: مدنية وثقافية، ولا ينضوي تحت أية جزئية منها، مهما كانت فاعلية هذه الجزئية وتدفق معطياتها.. ويؤكد إن هذه الرؤية العقيدية ذات الطابع الشمولي هي التي يجب أن تحتوي الحضارة كاملةً، وتصبغها، وتمنحها خصائصها، وترسم سبل صيرورتها ونموها.. وليس العكس بحال من الاحوال(٢).

لقد جاء الإسلام بتنظيم متين لكافة شؤون الحياة المتعددة المدنية والثقافية والاجتماعية، يصوغها ويسيطر عليها، ويصبغها بصبغته السماوية، إذ جاء الإسلام ليُكَوّن حضارته الخاصة به، الحضارة التي تستمد مقوماتها من بنيته، وتستمد جوهرها وكينونتها من مكوناته وتوجهاته. وبالتالي فإنه ما دام الإسلام يمد يده لكي يصوغ كافة مناحي الحياة وأشكالها المادية والروحية، المدنية والثقاقية، فإنه يمكن لنا أن نقول بأن حضارة الإسلام إنما هي وليدة هذا الدين العظيم، وأنها تتخلق في رحمه وتكسب مادتها وصورتها، جسدها وروحها، من نبعه الصاعد ودمه المتفجر بالحياة (٣).

إذً يمكن القول بأن الإسلام هو صانع الحضارة؛ وبالتالي فانه يستحيل منطقيًا وفكريًا أن نحصره ونجعله يمثل جانبا محصورا من مساحة واسعة تمتد اليها حضارة هي وليدة الإسلام نفسه، بل هو

(١) عماد الدين خليل: مؤشرات حول الحضارة الإسلامية، ص٤.
(٢) انظر: المصدر نفسه ، ص٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ، ص٥.

الأساس والركن الأعظم والأكبر فيها.

المطلب الثاني - العنصر الرابع في صناعة الحضارة عند مالك بن نبي

عوامل قيام الحضارة عند بن نبي كما بينا هي اشبه بالمعادلة الرياضية، غير أن هذه المعادلة لا نصل فيها الى نتيجة إلا عن طريق مفاعل أو مركب يدمج هذه العناصر ويصل بها الى غاية اخرى، وهذا الشيء هو الدين أو الفكرة الدينية أو العنصر الأخلاقي، وهو ما يمكن أن نطلق عليه (العقيدة). وربما لو اخذنا عناصر قيام الحضارة الثلاثة عند بن نبي الإنسان والتراب والوقت من غير(العقيدة) لرأينا أن هذه العناصر موجودة في كل الأمم، فلماذا لا توجد حضارة عند أغلب هذه الأمم الموجودة، والسبب في ذلك هو فقدان العنصر المهم، وهو ما يمكن أن نسميه (مركب الحضارة).

فالحضارة عند بن نبي لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعةً ومنهاجًا، أو تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام كما يوضح ذلك، وحسب وصف بن نبي، كأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيدًا عن حقبته اذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته، وتتفاعل معها [1].

ويؤكد بن نبي أنه حينما يبتدئ بالسير إلى الحضارة ، -أي حضارة كانت- لا يكون الزاد بطبيعة الحال من العلماء والعلوم، ولا من الانتاج الصناعي أو الفنون، بل يعد تلك الأمارات إنما تشير إلى درجة ما من الرقي، بل ان الزاد والجوهر فيها هو (المبدأ) الذي يكون منبعًا وأساسًا لكل المنتجات جميعًا.

ويضرب بن نبي مثلًا في جزيرة العرب كيف انها لم يكن بها قبل نزول القرآن أي ملامح للحضارة، إنما كان هناك شعب بدوي يعيش في صحراء قاحلة مجدبة، يذهب وقته هباء ولا ينتفع به أبدًا، وبالتالي فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت راكدة خامدة لا تؤدي أي دور في التاريخ، حتى إذا ما تجلت الروح (مركب الحضارة) بغار حراء، نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة، فكأنما ولدتها كلمة (إقرأ)، التي أدهشت النبي الأمي (صلوات ربي وسلامه عليه) وأثارت معه وعليه العالم معًا. فمن تلك اللحظة وثبت القبائل

(١) انظر: المصدر نفسه ، ص٥١.

العربية على مسرح التاريخ حتى ضلت قرونًا طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى التمدن والرقي(١).

ويركز بن نبي على أهمية تطبيق كما يسميه (المبدأ القرآني) إذ يبين بأنه اذا اردنا التوصل إلى التركيب الضروري كحل لمشكلة الحضارة الإسلامية، وهو مزج الإنسان والتراب والوقت، يجب أن يتوفر لدينا مؤثر الدين الذي يغير النفس الإسلامية، ويبين أن قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين، وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ، فجوهر الدين الإسلامي مؤثر وصالح في كل زمان ومكان كما وضح ذلك(٢).

إذً يضع مالك بن نبي (مركب الحضارة) العقيدة أو الفكرة الدينية، ووجودها مهم ومؤثر في المزج والإثمار، الذي يرافق تركيب كل الحضارات خلال التاريخ . فلقد ولدت المجتمعات التي ما تنفك تسلط حتى هذا الحين انعكاسات حضارتها على الخارطة الجغرافية ، وأعني بها: الهندوسية، والبوذية والمسيحية والإسلامية، من هذه الانطلاقة الروحية التي أقامت هياكل (براهما) و(بهوة) ومعابد البوذية والكنائس القوطية والمساجد الإسلامية فلكل هذه الحضارات -المعاصرة لنا- قد شكلت تركيبها المتألف، في مهد فكرة دينية(٣).

وفي الختام فالحضارة عند نبي لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، وبما إننا نتكلم منطلقين من حضارة الإسلام، فإننا نمتلك أقوى وأقوم وأسلم فكرة دينية -عقيدة- على وجه الأرض وعلى مدار التاريخ، وأيضًا نمتلك العناصر الثلاثة الاخرى التي تقوم عليها الحضارة حسب رأي مالك بن نبي، إذً بقي علينا أن نراجع ما الخلل الحاصل عندنا، وكما هو واضح ومعلوم للجميع أننا ضيعنا تطبيقنا وتفعيلنا لهذه العقيدة العظيمة، وكما يقول تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (سورة الرعد: ١١)، فلذلك علينا عمل مراجعة شاملة وكاملة لوضعنا، والعمل على التصحيح والتصويب.

---

(١) انظر: المصدر السابق : ص٥١.

(٢) انظر: المصدر نفسه : ص٥٨.

(٣) عبد الرزاق الجبران، فلسفة النشوء الحضاري، مجلة النبأ، العدد ٤١ ، شوال ١٤٢٠ ، كانون الثاني ٢٠٠٠ ، ص ٣٣

الخاتمة

من خلال ما سبق رأينا كيف أن الحضارة والنهضة هي غاية كل أمة، وكل حضارة لا تقوم إلا اذا توفرت لها العناصر الأربعة الإنسان والتراب والوقت والفكرة الدينية، ولا يكتب لها الصعود والبروز إلا اذا انطلقت من فكرة دينية قوية، واستندت عليها، وطبقتها بصورة صحيحة.

قد أكد مالك بن نبي على أهمية عناصر الحضارة الأربعة ، وأنها تقوم على العنصر الأول الإنسان، الذي يعده بن نبي هو مالك زمام المبادرة وقائد حركة البناء، وبالتالي علينا أن نفهم انه يجب علينا في العالم الإسلامي ضرورة الاستثمار في الموارد البشرية وتنميتها وبناءها ، لأنه مهما استورد العالم الإسلامي من التكنولوجيا الغربية فإن هذا لن يحقق النهضة والحضارة مالم يتم تأهيل وبناء الإنسان المسلم أولًا.

وأيضًا نستنتج من هذا البحث أن الفكرة الدينية أو العقيدة تُعد عند بن نبي هي الأساس والمحرك الأول لأي نهضة أو حضارة، ويصفها بـ (مركب الحضارة) وهي التي تقوم بمزج عناصر الحضارة الإنسان والتراب والوقت والقيام بحضارة جديدة، إذا كانت هذه العقيدة قوية وراسخة، وكما بينا في هذا البحث فإن فكرة النهوض الحضاري عند مالك بن نبي لا تقوم إلا بالعقيدة الدينية.

ولاحظنا كيف ان مالك بن نبي قد أكد وركز على ضرورة العودة إلى (القرآن الكريم) كما يسميه (المبدأ القرآني) والاستفادة منه والعمل به، وأيضًا بالعودة إلى جيل الحضارة الأولى والاستفادة منهم، ومحاولة فهم كيف أنهم مزجوا العناصر الثلاثة وفهموا عقيدتهم بصورة سليمة وصحيحة وانطلقوا منها فاتحين محررين البلاد والعباد، وصانعين لحضارة امتدت لقرون طويلة.

المصادر والمراجع

١- ابن فارس (أحمد بن زكريا القزويني الرازي): معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، ١٩٧٩ م.

٢- ابن منظور (محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين) ، لسان العرب، دار صادر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٤ هـ.

٣- أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت.

٤- أحمد عبد الرحيم السايح: الحضارة الإسلامية ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، السنة العاشرة - العدد الثالث- ذو الحجة ١٣٩٧ هـ - نوفمبر تشرين الثاني ١٩٧٧ م.

٥- راغب السرجاني : مالك بن نبي .. فيلسوف الحضارة والنهضة، بحث منشور في موقع قصة إسلام، ٢٠١٤م (https://islamstory.com/).

٦- رائد سعيد أحمد بني عبد الرحمن: دور العقيدة في بناء الحضارة، أركان الإيمان نموذجا، بحث منشور في مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية، العدد(١)، المجلد(٤)، كانون الثاني، يناير، ٢٠١٨.

٧- سعدي أبو حبيب: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، دار الفكر، سورية ، ط٢، ١٩٨٨م.

٨- عبد الرزاق الجبران، فلسفة النشوء الحضاري، مجلة النبأ، العدد ٤١ ، شوال ١٤٢٠ ، كانون الثاني ٢٠٠٠ .

٩- عبد الله بن عبد الحميد الأثري: الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة) ، تقديم : صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ، نشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ.

١٠- عبد المجيد النجار: دور الاصلاح العقدي في النهضة الإسلامية، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، مجلد١، عدد١، ١٩٩٥م.

١١- عماد الدين خليل: مؤشرات حول الحضارة الإسلامية، دار الصحوة للنشر والتوزيع، مصر، ب، ت.

١٢- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر

والتوزيع، دمشق، سوريا، ١٩٨٦م.

١٣- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د. بسام بركة، ود. أحمد شعبو، دار الفكر المعاصر بلبنان ودار الفكر بسوريا، ط٢، ٢٠٠٢م.

١٤- محمد بن أحمد الأزهري الهروي: تهذيب اللغة: تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٥- مصطفى النشار: مالك بن نبي من نقد الذات و الآخر إلى بناء نظرية جديدة في البناء الحضاري مجلة العقيدة، العدد : ١٥، شهر جمادى الثانية ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م.

١٦- موقع مالك بن نبي: www.binnabi.net.